﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧﴾ [مريم: 66 - 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

غـــرور الـكـافـر يـصـرِفُـهُ عـنِ الحقائق الثَّابتة من جلال القُدرة

بعد أن رتَّبَ التَّنزيلُ الحكيمُ على الآية الرَّابعةِ والسّتّين، وعلى قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، الأمرين: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾، وهو أقصى ما يُمكِنُ أن يُرتَّبَ على ذلك؛ لأنَّ نبيَّنا ﷺ أكملُ الكُمَّلِ مِنَ الأنبياء والرّسل، فكان في ذلك دحضٌ عليٌّ لكلِّ شركٍ وكفرٍ ومتعلِّقاتهما؛ بيَّنَ أنَّ مِنَ العباد مَن تجاهل ذلك كلَّه مِنَ المُترتَّبِ عليه، فأنكر البعثَ، وهو ترتيبُ شيءٍ على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه، وذلك يقتضي كلَّ عُجبٍ ودهشةٍ، والله أعلم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُخۡرَجُ﴾: (خرج) يدورُ حول نفاذٍ مِنَ الحيِّز أو الأثناء بتجمُّع: كالورم مِنَ الجسم، والسّحاب من جوف الأفق[1]، وخَرَجَ: برز من مَقرِّه أو حاله، سواءٌ كان مَقرُّه دارًا أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُهُ حالةً في نفسه، أو في أسبابه الخارجة، والإخراجُ أكثرُ ما يُقالُ في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35][2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أيعجزُ الخالِقُ الّذي أوجد مِنَ العدم ثمّ قدَرَ على الإماتة أن يُخرِجَ مخلوقَهُ كرَّة أخرى

قال الكلبيُّ: نزلت في أُبيِّ بن خَلَف حين أخذ عظامًا باليةً يفتُّها، ويقول: "زعمَ لكم محمّدٌ ﷺ أنَّا نُبعثُ بعدما نموت"[3]، إنَّ الكفرَ والغرورَ يفعلان بصاحبهما فعلَ الطَّائشِ الهمجِ الّذي يظنُّ أنَّ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).
(2) الرَّاغب، المفردات: (خرج).
(3) الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 227.

الدُّنيا له، فلا مماتَ بعدَ حياةٍ، ولا حياةَ بعدَ مماتٍ، هكذا تسويلاتُ شياطينهم وتخيّلاتُهُمُ الباطلة، ولو رجع إلى نفسه برهةً مِنَ الزَّمن مع مَن غبر وولَّى لَعلمَ ذلك علمَ يقينٍ، ولكن أنّى له ذلك؟.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها في ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الكفر والغرور يفعلان بصاحبهما فعلَ الطَّائش الهمج

الواو عاطفة من باب عطف القصَّة على القصَّة، قصّة هذا المُنكِرِ للبعث واستبعاد حدوثه على الأمر بالعبادة الخالصة لله تعالى والاصطِبار عليها؛ أي: أنّ الإنسانَ بين مُعترِفٍ بالعبوديَّة لربِّه ﷻ، وبين مُنكِرٍ لقدرته تعالى على الإيجاد بعد الموت وحصول البعث.

دلالة التَّعبير بفعل القول مضارعًا:

مِنَ الشُّذوذِ اعتقادُ ما قامتِ الأدلّةُ على بطلانِه

التّعبيرُ بالفعل المضارع دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار واستحضار الصّورة العجيبة الغريبة، وتلك الأقوال المُنكَرَةِ الّتي صدرت قبلُ عن هذا الكافر، أو لإفادة أنَّ هذا القولَ موجودٌ ومستمرٌّ عند كثيرٍ مِنَ الكافرين[1]، والمرادُ هنا التَّعجيبُ مِن قائل هذه المقالةِ المُنكرَةِ تعجيبًا إنكاريًّا؛ فقد اعتقدوا ضدَّ ما قامتِ الأدلّةُ على ثبوته، وموطنُ التَّعجيب إيرادُ التّنزيلِ الكريم لهذا القول عَقِبَ الاستدلالِ العليِّ على صحّة البعث الّذي يستوجبُ عند كلِّ عاقلٍ اعتقادُهُ، لا إنكارُهُ، فضلًا عن استمرار إنكاره ودوامه؛ مِمَّا تُنبِّهُ إليه صيغةُ المضارع.

نوع (اللَّام) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ودلالتها:

المانعُ الأكبرُ من قبول الحقِّ هو الغرور والكِبْر

(اللَّام) هنا للعهد؛ أي: الإنسان المعهود بقوله ذلك، وهو أُبيُّ بن خَلَف، أو لجنس الكفَّار مُنكري البعثِ، وعليه يكون من قبيل إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ[2].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 57.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 242.

وقد تكون لجنس الإنسان، ومَعلومٌ في لغة العرب إسنادُ الفعل إلى المَجموع، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: 77]، والعاقرُ واحدٌ لكن لمَّا ارتضى الجمعُ فعلتهم؛ عمَّهم الفعلُ، والمرادُ جنسُ الكافر المُنكِرِ للبعث.

دلالة إسناد القول إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

مُنكِرو البعث على كثرتهم جزءٌ دلَّ على عموم الجنس البشريِّ

أفاد التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الجنسَ، فيكون المُرادُ الجنسَ بأسرِه كلّهم، فإنْ قيلَ كلُّهُم غَيرُ قائلينَ بذلِكَ، فكيفَ يَصِحُّ إسنادُ القول إلى أجناس الإنسان؟

فأمَّا من حيث جواز هذا التّركيب فلأنَّ هذه المَقالَةَ كانَت مَوجودَةً فيما هو مِن بعض جِنسِهم، فصَحَّ إسنادُها إلى جَميعِهم.

وأمَّا من حيث المعنى فقد بيَّن الإمامُ الرَّازيُّ أنَّ هذا الاستِبعادَ الواقع من بني البشر موجودٌ ابتِداءً في طَبعِ كُلِّ أحدٍ إلَّا أنَّ بَعضَهُم تَرَكَ ذلك الاستِبعادَ المَبنيَّ على مَحضِ الطَّبعِ بالدَّلالةِ القاطِعَةِ الَّتي قامَت على صحَّةِ القَولِ به[1].

وقد يُفيدُ تعميمُ القول للكلِّ الإشارةَ إلى قلَّة المؤمنين بالبعث على الوجه الّذي جاء به النَّبأ العظيم[2].

معنى الاستفهام ودلالته في ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾:

قد يكون الباطلُ أصلًا لا غرابةَ فيه ولا عُجبَ

أخرجَ هذا الإنسانُ اعتقادَه في صورة استفهام؛ ليُفهمَ غايةَ ثقتِه واقتناعِه بما يعتقد مِن إنكار وقوعِ البعثِ، ولذلك كان له أن يستبعدَ ذلك، ويتعجَّبَ منه بالاستفهام، بل إنَّه أتى "بالجُملةِ المُسَلَّطِ عليها الإنكارُ مُقترِنَةً بلام الابتداءِ الدَّالَّةِ على توكيدِ الجملةِ الواقعةِ هي فيها؛ أي: يَقولُ: لا يَكونُ ما حَقَّقتُموهُ مِن إحيائي في المُستَقبَل"[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 242.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 117.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 143.

دلالة التّعبير بـ (إذا):

قياسُ الغائب على الشَّاهد هو مَناطُ الإيمان

تَرِدُ (إذا) في الشَّرط المقطوع بوقوعه وحصوله، وهي ظرف زمان مُتضمِّن معنى الشَّرط، والعامل فيها أو متعلِّقها محذوف، دلَّ عليه قوله: ﴿أُخْرَجُ﴾، والتَّقدير: (أَإذا ما متُّ بُعِثت؟) ولا يجوز أن يكون ﴿أُخْرَجُ﴾ هو عاملَ النَّصب فيه لوجود اللَّام الفاصلة بين العامل والمَعمول، وإنَّما دخلت (إذا) على المُتيقَّنِ وقوعُهُ، وهو الموت، دلالة على أنّ المُشاهَدَ عندَهُم غيرُ مُنكَرٍ، لكنَّ غباءَهم في عدم قياس الغائبِ على الشَّاهدِ منعَهُم من إعمال العقل للاستدلال، فمانِعُهم الغباءُ والاستكبارُ.

سرُّ إيلاء الظّرف همزة الاستفهام في ﴿أَءِذَا﴾:

قد يُرَتِّبُ الباطلُ أفكارَه؛ ليُقنِعَ بها، وأنَّى له ذلك

تقدَّمَ الظّرفُ في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ على ما بعده واقعًا بعدَ همزة الاستفهام الّذي للإنكار؛ لِما أنَّ المُنكَرَ كونُ ما بعدَ الموت وقتَ الحياة؛ فهذا التّرتيبُ هو الّذي يصوِّرُ حركة المعنى المقصودة في الآية؛ فهُم يُنكِرون أن يكونَ بعد الموت حياةٌ، والموتُ سابقٌ على تلك الحياة الّتي يقولُ بها الدّينُ الإسلاميُّ، ثمّ إنَّه مانِعٌ منها، وهو آخِرُ ما يتعلَّقُ بالإنسانِ، فلهذا كلِّه قُدِّمَ على ما بعده.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها في ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾:

الإيمانُ بالغيبِ مِن أعلى مَراتِب الإيمان

زيدت ﴿مَا﴾ فاصلةً بين ﴿أَءِذَا﴾ و﴿مِتُّ﴾، ولا يجوزُ لغةً أن تفصِل بين ﴿مِتُّ﴾ و﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ - ؛ لتصوير غاية استبعادِ وقوعِ البعثِ بهذا الفاصلِ، وما فيه مِن شديد الإبهام، ومَدِّ الألف، كأنَّ ما بعد الموت، كهذا الإبهام، لا يُبينُ عن شيءٍ مُحدَّدٍ، فيكونُ استعمالُ ﴿مَا﴾ تمكينًا وتوكيدًا لإنكار البعث الّذي هو بعضُ دلالات الاستفهام، والله أعلم.

نكتة إيثار (سَوفَ) على نظيرتها السّين:

التَّعبيرُ بالحرف (سوف) في قوله ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ إمعانٌ

في إنكار وقوع البعث؛ لأنَّه يدُلُّ على التّأخير والتّنفيس، وزمانُه أبعدُ من زمان السّين؛ لِما فيها من إرادة التّسويف، ومنه قيل: فلانٌ يسوِّف فلانًا، و"سوف تُستعمَلُ كثيرًا في الوعيد والتّهديد، وقد تُستعمَلُ في الوعد، والأكثر في السّين الوعد، وتأتي للوعيد"[1]، كما أنَّ "سَوفَ حرفٌ يُخصِّصُ أفعالَ المُضارَعَةِ بالاستقبال، ويُجرِّدُها عن معنى الحال، ويقتضي معنى المُماطَلَةِ والتّأخير، واشتُقَّ منه التَّسويفُ اعتبارًا بقول الواعد: سوف أفعَلُ كذا"[2] فلهذه الخصوصيَّات استُخدِمت (سوف)؛ لكونها الأنسبَ للسّياق.

إرادة المماطلة والتّأخير طبيعة عند المُنكِرين

دلالة اقتران سوف باللّام:

أتَى التّنزيلُ الكريمُ بالجملة المصدَّرة بـ(سوف) في قوله: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ مُقترِنةً بلام الابتداء؛ للدّلالة على توكيد مضمون هذه الجملة على سبيلِ الحكاية عنِ القرآن أو الرّسول أو أهلِ الإيمان، وهذا يعني غايةَ الرّفضِ لاعتقاد صحَّة البعث، بالجُملةِ المُسَلَّطِ عليها الإنكارُ مُقترِنةً بلام الابتداءِ الدَّالَّة على توكيدِ الجُملةِ الواقِعَةِ هي فيها؛ أي: يَقولُ: لا يَكونُ ما حَقَّقتُموهُ مِن إحيائي في المُستَقبلِ"[3]، وقد تكون "اللَّام في قوله: ﴿لَسَوْفَ﴾ مَجلوبَةً على الحكاية لكلامٍ تقدَّم بهذا المعنى، كأنَّ قائلًا قال للكافر: إذا متَّ يا فلانُ؛ لسوف تُخرَجُ حيًّا، فقرَّرَ الكافرُ على الكلام على جهة الاستبعاد، وكرَّر اللَّام حكايةً للقول الأوّل"[4].

قد يحكي الباطلُ الحقَّ لهدمه

دلالة المضارع المبنيّ للمفعول ﴿أُخْرَجُ﴾:

بُنيَ فعلُ الإخراج هنا لِما لم يُسمَّ فاعلُه للعلم به، وتعيُّنه؛ لأنَّ المُخرِجَ والباعثَ مِنَ الموت هو الله تعالى، والفعل المضارع دالٌّ على

المُخرِجُ والباعِثُ مِـنَ المـوت هو الله تعالى

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 283، 282.
(2) الرّاغب، المفردات: (سوف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 144، 143.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 25.

التَّجدُّد والاستمرار واستحضار الصّورة، ولاسيّما الصّورة العجيبة الغريبة مِنَ الإخراج والبعث بعد الموت، وورد كذلك للإشارة إلى أنَّ الخروجَ بفعل قوَّةٍ قادرةٍ ظاهرةٍ، وفي حذف الفاعل بملاحظة المتكلِّم المُنكِر للبعث إشعارٌ بهروبه مِنَ الحقّ الّذي قد يُسيطر عليه لو نطق باسم الجلالة، وفيه أيضًا الفِرارُ مِنَ الوقوع في التّناقض؛ لأنَّه لو نطق باسم الجلالة لكان دالًّا على إمكان وقوع البعث؛ لأنَّ هذا الإنسان يُقِرُّ بخالقيَّة الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزّخرف: 87].

نكتة حذف متعلّق ﴿أُخۡرَجُ﴾:

الإبلاغُ في إنكار البعث صورةٌ لسيطرة دليل صحّته على المُنكِر

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿أُخۡرَجُ﴾ هنا إيجازًا واختصارًا لكونه معلومًا، والمراد: أُخرَجُ من القبر، أو أُخرَجُ حيًّا من الأرض بعد طول رُقادٍ فيها، أو أُخرَجُ مُخرَجًا فيه الحياةُ، وفي غياب متعلِّقه إشعارٌ بعدم الخروج أصلًا، وهذا إمعانٌ في تقرير عدم الخروج حيًّا، فالحذفُ تمكينٌ لإنكار وقوع البعث.

سرُّ إيثار ﴿أُخۡرَجُ﴾ على (أُبعَث):

الموتى يُخرِجُهم الله، ويُسيِّرُهم إلى القيامة للمحاسبة

المرادُ مِن قوله: ﴿أُخۡرَجُ﴾ الخروجُ مِنَ الأرض، أو من حال الفناء، أو هو من قولهم: خرج فلانٌ عالمًا، وخرج شجاعًا؛ إذا كان نادرًا في ذلك، يريد: سأُخرَجُ حيًّا نادرًا على سبيل الهزُؤ[1]، والبعث: إثارةُ الشّيءِ وتوجيهُه، يُقالُ: بَعَثْتُهُ فانبَعَثَ، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلاف ما عُلِّقَ به، فبَعَثْتُ البعيرَ: أثرتُه وسيَّرتُهُ، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يخرِجُهُم، ويُسَيِّرُهُم إلى القيامة"[2]، وإنَّما عبَّر بـ ﴿أُخۡرَجُ﴾ لحكاية الإنكار المُبالَغِ حتّى إنَّه لَيتحاشى ذِكرَ لفظ البعث.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 517.
(2) الرّاغب، المفردات: (بعث).

سرُّ التَّقييد بالحال في قوله: ﴿حَيًّا﴾:

قوله: ﴿حَيًّا﴾ حال مؤكِّدة لفعل الخروج؛ لأنَّ من لوازم هذا الخروج أن يكون حيًّا؛ أي: للعرض والحساب، فالله سبحانه يبعثهم، ويُحييهم للمثول بين يديه لرفع المَظالِم، وهذه الحالُ ذروةُ حركة معنى إنكار البعث في الآية.

الـبـاطـلُ لا يـتـحـاشَى مِـن إعلان مَذهَبه

الغرض مِنَ الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾:

المرادُ مِنَ الاستفهام هنا الإنكارُ والتَّعجيبُ من ذهول الإنسان المُنكِر البعثَ عن خلْقِه الأوّل، وهذه الجملة"مَعطوفَةٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يَقولُ ذلكَ، ومِنَ النَّكيرِ عليه أنَّهُ لا يَتَذَكَّرُ أنَّا خَلَقناهُ مِن قَبلِ وُجودِه"[1]، وهي احتجاجٌ خاطَبَ اللّهُ تعالى به نبيَّه ﷺ ردًّا على مقالة الكافر.

مِـنَ الإحـسـان تـذكـيرُ الإنـسـان بأصله

نكتة تقديم الهمزة على الواو في ﴿أَوَلَا﴾:

الهمزة للاستفهام الإنكاريّ دخلت على الواو العاطفة المفيدة للجمع، عطفَت ما بعدها على معطوف محذوفٍ دلَّ عليه ﴿وَيَقُولُ﴾، والتّقدير: (أيقولُ ذلك، ولا يذكرُ خلْقَه الأوّلَ؟)، فأفادَتِ الهمزةُ إنكارَ الجمع بين القول، وعدمَ الذِّكر الّذي هو المعطوف عليه للإشارة إلى أنَّ المُستَنكَرَ بالذّات هو عدمُ الذِّكر الَّذي هو المعطوف المذكور، وأنَّ المعطوفَ عليه، وهو القول: إنّما نشأ منه، فإنَّه لو تذكَّر أنَّا خلقناه مِن قبلُ، ولم يكُ شيئًا لم يقُلْ ذلك.

دعـوةٌ للوقوف والـتَّـفـكُّـر في الـحـالـة الأولى قبل الخِلقة

دلالة النَّفي بـ(لا) دون (لم) في ﴿أَوَلَا﴾:

(لا) تَرِدُ للنّفي، وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وتعمل عمل (إنّ)، فتنفي ما أوجَبتهُ (إنّ)، فتشبهها في الإعمال، ويكثُر حذفُ خبرها؛ إذا عُلِم، وهي لنفي الجنس والعموم، وقد تَرِدُ بمعنى (لم)،

الَّـذي خَـلَـقَ من عَـدَمٍ قـادر على الإيجاد والبعث مرّةً أخرى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 144.

ولذلك اختُصَّت بالدُّخول على الماضي، وتجيء مؤكِّدةً النّفي في غير مَوضِعها الَّذي تستحقُّه، أمَّا (لم) فهي لنفي المضارع وقلبِه ماضيًا، فمجيء النّفي بـ (لا) ههنا لنفي عموم التَّذكُّر ووقوعه من هذا المُنكِر، وهي هنا أبلغُ مِنَ التّعبير بـ(لم) في نفي هذا التَّذكُّر لمقام الإنكار والاستبعاد لأمر البعث، وأنَّ الَّذي خلقَه من عَدَم قادرٌ على إيجاده وبعثه مرَّةً أخرى، فـ(لا) تفتحُ البابَ للمُخاطَبِ المُنكِر للبعث أن يتذكَّرَ أصلَ نشأته في كلِّ وقتٍ، وهذا إحسانٌ إليه أيّ إحسانٍ.

خصوص نفي التَّذكُّر:

يتوجَّهُ هنا سؤالٌ، وهو كيفَ أمَرَ تعالى الإنسانَ بالذِّكرِ مع أنَّ الذِّكرَ هو العلمُ بما قد عَلِمَهُ مِن قَبلُ، ثمَّ تَخَلَّلَهُما سَهوٌ؟ والجوابُ: أنَّ المرادَ: (أوَلا يتفكَّرُ فيَعلَمَ) خصوصًا إذا قُرِئَ ﴿أَوَلَا يَذَّكَّرُ﴾ بالتّشديد، أمَّا إذا قُرِئَ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بالتّخفيف فالمراد: (أوَلا يَعلَمُ ذلكَ مِن حالِ نَفسِه)؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يَعلَمُ أنّهُ لم يَكُنْ حيًّا في الدُّنيا، ثمَّ صارَ حيًّا[1].

لـكـلِّ شـيءٍ أسـاسٌ يـقـومُ عليه

والذِّكرُ: تارةً يُقالُ، ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفس بها يُمكِنُ للإنسان أن يَحفظَ ما يَقتَنيه مِنَ المَعرفة، وهو كالحِفظِ إلَّا أنَّ الحفظَ يُقالُ اعتبارًا بإحرازِه، والذِّكرُ يُقالُ اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يُقالُ لحضور الشّيءِ القلبَ أو القولَ، ولذلك قيلَ: الذِّكرُ ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللِّسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذِكرٌ عن نسيانٍ، وذِكرٌ لا عن نسيانٍ بل عن إدامَةِ الحِفظِ، وكلُّ قولٍ يُقالُ له: ذِكرٌ، أمَّا العِلْمُ فإدراكُ الشّيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدُهُما: إدراكُ ذاتِ الشّيء، والثّاني: الحُكمُ على الشَّيء بوجود شيءٍ هو مَوجودٌ له، أو نَفي شيءٍ هو مَنفيٌّ عنه"[2]، ومن هنا كان التَّعبيرُ بالذِّكر أوسعَ وأنسبَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 11/ 242.
(2) الرَّاغب، المفردات: (ذكر، علم).

بمقام الإنكار الوارد من هذا المُنكِر، وأشملَ في أداء المعنى المراد مِنَ الرَّدِّ عليه وإحجامه ومحاجَّته بالدّلائل الدَّامغة والبراهين القاطعة.

وإنّما عُبِّر بالتَّذكُّر؛ لأنَّه أساسُ التَّفكُّرِ والعِلم، وما جرى في هذا الطّريق مِنَ المعنى؛ فهذا الَّذي بالغَ في إنكار وقوع البعث في الآية السَّابقة لم يكنْ عنده أساسُ ما يُنقِذُه مِن هذا الإنكار، والآيةُ بهذا الاستفهام تلفته إليه، وتنبِّهه عليه، وهذا رحمةٌ ولطفٌ به.

تنوُّع القراءات في ﴿يَذۡكُرُ﴾، وأثره على المعنى:

للقرآنِ بلاغةٌ خاصَّةٌ به

قرأ بإسكان الذَّال والتّخفيف نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ إشارةً إلى أنَّ أدنى ذِكرٍ مِن هذا يُرشِدُ الإنسان إلى الحقِّ، وقراءةُ الباقين ﴿يَذَّكَّرُ﴾ بفتح الذَّال والكاف وتشديدِهما يشيرُ إلى أنَّه لاستغراقه في الغفلة يحتاج إلى تأمُّلٍ شديدٍ"[1]، فالقراءتانِ أحاطتا بحالِ المُنكِرِ وحالِ ما يُنكِرُه؛ ومِثلُ هذا المبالغ في إنكاره يفتقرُ إلى تذكُّرٍ عميقٍ وطويلٍ، وهذا ضربٌ مِنَ الإيجاز الخاصِّ بالقرآن، وتشديد ﴿يَذَّكَّرُ﴾ أصله: يتذكَّرُ أُدغِمَتِ التَّاءُ في الذَّال لقرب مَخرَجهما.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يَذۡكُرُ﴾:

النّظر في الماضي يفضي للاعتبار

الفعلُ المضارعُ دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار مع استحضار الحالة الماضية والصّورة الغريبة العجيبة لهذا التَّذكُّر، وعلاقته بالتَّفكُّر والنّظر في أنَّه إذا خُلِقَ مِن قَبلُ لا من شيءٍ، فجائزٌ أنْ يُعادَ ثانيًا.

سرُّ إظهار لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في مَوضِع الإضمار:

الإنسانيّةُ من دواعي التَّفكُّرِ لِما خصَّهم الله تعالى به مِنَ العقل

والإظهارُ في مَوقِعِ الإضمارِ لزيادة التّقرير، والإشعارِ بأنَّ الإنسانيّةَ من دواعي التَّفكُّرِ فيما جرى عليه من شؤون التّكوينِ المُنحيَةِ بالقَلْعِ عنِ القول المذكور، وهو السِّرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوانِ[2]، وفي إظهارِه شديدُ تعجُّبٍ مِن شأنه

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 318، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 221.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 274.

وحاله، فهذا المخلوقُ صار له شأنٌ وحالٌ، فهو يقولُ، ويُرَدُّ عليه، إلخ، وقد كان مِن قبلُ عَدَمًا.

نوع اللَّام في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ودلالتها:

اللَّامُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يجوز أن تكون للجنسيّة؛ إذا كان المرادُ بها جنسَ الكفرةِ الَّذين قالوا بعَدَم البعث، ويجوز أن تكون للعهد؛ أي: الشّخص المعهود بقول ذلك، وهو أُبيُّ بن خَلَف الجُمَحيّ، فهو معيَّن مقصود بهذا، وعبَّر بالكلِّ إدخالًا لكلِّ مَن يقول بقوله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

دعوة إلى كلِّ مَن ينكرون البعث قديمًا وحديثًا

سرُّ الإسناد في ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾:

ورد الإسنادُ إلى ضمير المتكلِّم بضمير العظمة تعظيمًا وتشريفًا وبيانًا لقدرته ﷻ في إيجاد الخلق ولا مُشاركَ له في ذلك، ولا ندَّ ولا نظيرَ له يمكنه فعل ذلك، وهذا أقوى ردٍّ على هذا المُنكِر، فهذه القوّةُ بنون العظمة تواجِه إبلاغَه في إنكار وقوع البعث في الآية السَّابقة.

كلُّ ما عليهم فعله أن يتذكَّروا حالتهم الأولى

فائدة الإطناب بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

ورود قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا تتميم، وهو أن يُؤتى في كلام لا يوهمُ خلافَ المقصودِ بفضلَةٍ مُبالِغةٍ في تأكيد بيان خلق الإنسان أوَّل مرَّةٍ، ثمَّ إعادته بعد موته وبعثه، والمعنى: مِن قبلِ ألَّا يوجد ثمّ كان، فكما أوجدناه قبلَ ذلك؛ نعيدُه عودًا آخرَ بعد مماته؛ إذِ المعنى - على الجملة دون الكشف عن المطلوب سياقًا - يمكن أن يتمَّ بدون قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، ولا يوهمُ تركُهُ خلافَ المَقصودِ، وهو فضلَةٌ زيدَت مُبالَغةً في الرّدِّ على هذا المُنكِر، ولا ريبَ في أنَّ الإبلاغَ بهذا التّتميم ﴿مِن قَبْلُ﴾ يواجِهُ حالةَ المبالغة في الإنكار في الآية السَّابقة، فالرَّدُّ قوَّةً وضعفًا يكونُ بحسبِ الشُّبهةِ وأدائِها قوَّةً وضعفًا.

التَّأكيد في بيان خلق الإنسان أوَّل مرَّةٍ، ثمَّ إعادته بعد موته وبعثه

مَوقِعُ جملة ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ ودلالته:

هذا التّركيبُ جملةٌ حاليَّةٌ وردت مبيِّنة للحالة الّتي كان عليها هذا المُنكِرُ قبل وجوده في هذه الدُّنيا، وهي مزيد تأكيدٍ لحالة العَدَمِ

الإمعان في التّوكيد للإمعان في الإنكار

الّتي كان عليها قبلُ، أفيعجزُ مَنْ أوجده من هذا العَدَمِ أن يعيدَهُ مرَّةً أخرى؟ وبهذه الجملة يقوى الرّدُّ على المُنكِر للبعث؛ وذلك مواجهة لمبالغته في الإنكار في الآية السَّابقة: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾.

سرُّ حذف نون الكون:

الأمـر بالطَّاعة تكريم للإنسان

حُذِفَت نونُ الكون المضارع في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ﴾ لغير علَّةٍ صرفيّةٍ أو نحويّةٍ، والأصل: (لم يكُنْ)، وسرُّ الحذف بملاحظة النّفي التّنبيهُ على أدنى كون منفيٍّ؛ أي: (ولم يكُ أيَّ شيء، ولا أدنى شيء)، وهذا إبلاغٌ في تقرير معنى جملة النّفي، ويتبعه معنى تحقيره، وداعي ذلك مِن السّياق إبلاغُ هذا الإنسان في إنكار البعث بقوله: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا﴾؟ ونبَّه البقاعيّ على معنى تمكين التّحقيرِ بالحذفِ، فقال: "ولمَّا كان المَقامُ لتحقيره بكونه عَدَمًا أعدمَ مِنَ التَّعبير عن ذلك ما أمكَنَ إعدامُهُ، وهو النّونُ؛ لِتُناسِبَ العبارةُ المُعتَبَرَ، فقال: ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـًٔا﴾ أصلًا، وإنَّا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته، فلا يُنكَرُ ذلك"[1].

معنى ﴿شَيۡـًٔا﴾، وسرُّ تنكيره:

التَّفكُّر في أصل الخلقة يقرّر إدراك قدرة الخالقِ على الإعادة

الشّيءُ هو الموجود أو أصله، والمعنى: (أنَّا خلقناه مِن قبلِ ذلك، ولم يكُنْ موجودًا، أو لا أصلَ له في هذا الوجود)، والتّنكيرُ هنا للتَّقليل والتَّحقير، ولهذا تعاضد التّنكيرُ وحَذفُ حرفِ النّون في إبراز ذلك، قال البقاعيّ: "ولمَّا كان المَقامُ لتحقيره بكونه عَدَمًا أعدمَ مِنَ التّعبير عن ذلك ما أمكَنَ إعدامُهُ، وهو النّونُ؛ لِتُناسِبَ العبارةُ المُعتَبَرَ، فقال: ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـًٔا﴾ أصلًا، وإنَّا بمقتضى ذلك قادرون على إعادته، فلا يُنكَرُ ذلك"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 222.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 222.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»